البيان العربي

عهد الجاهلية:

تنافس العرب أيام الجاهلية في نظم القصيد والرجز وفي الخطب المنثورة، ورويت عنهم أمثال وأحاديث؛ وكان ما يفيض من قرائح شعرائها وخطبائها في المفاخرات والمنافرات والحمالات والمهادنات من دواعي الإعجاب و الاغتباط.

وما كان لكل عربي أن ينفتق لسانه بقول الجيد من الشعر أو النثر، فقد يأتي الحيل والجيلان، والقبيلة العظيمة لا يظهر فيها شاعر أو خطيب يعلي صوتها وصيتها، ويعدِّد من عام إلى عام مآثرها، ويرفع بها يبتده الضيم عن أهلها، ويرهب بسلطان بلاغته عدوَّها، وكان الشاعر عندهم يُفضَّل على الخطيب، فلما اتخذ الشعراء شعرهم آلة للتكسب، وابتذلوه في المديح والهجاء، علت منزلة الخطيب على منزلة الشاعر.

ولقد حُفِظَ من الشعر بعضه لطربهم به، وعجبهم بالعالي منه، ولأنه دوَّن مفاخرهم وخلَّد تاريخهم، وباد النثر على وفرته، إلا صفحات قليلة لو أعمنا النظر في بعضها، لما أحجمنا عن القول بأنها واهية الإسناد، ظاهرة التصنيع؛ ومنها أمثلة في أمهات كتب الأدب لا تروقك ولا تشوقك، والغالب أن ما عُزي لعهد الجاهلية من المنثور كان مما أخذ بالمعنى كما نُقل معظم الأحاديث النبوية.

يقول الرقاشي: ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يُحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير.

ضاع تراث الجاهلية في النثر لفقدان التدوين، ولغلبة الأُمية على العرب، وما رواه الرواة كان من محفوظ الرجال، والحفظ عرضة للنقص والزيادة. وجاء الإسلام وليس في قريش غيرُ سبعة عشر رجلًا وبضع نساء يكتبون ويقرءون، وقريش سادة العرب وأنبه قبيلة فيهم، وأكثرهم حضارة وتمازجًا بالشعوب المجاورة، أما سائر بلاد العرب كاليمن فلم يُعرف فيها مَن يكتب.

شاعت الكتابة في الحيرة أكثر من غيرها من البلاد المتاخمة لجزيرة العرب، ويعلل المرزباني ذلك بأن أهل القرى ألطف نظرًا من أهل البداوة، وأنهم كانوا يكتبون لمجاورتهم أهل الكتاب، فأخذت قريش الكتابة عن إياد في الحيرة، ولما كان أهل القرى أكثر استعدادًا للحضارة ظهر الأنبياء فيهم، وما جاء رسول من أهل الوبر.

كَتبَ عدة كُتّاب من أهل الحيرة في ديوان الأكاسرة، ومنهم عدي بن زيد، وزيد بن عدي، ولقيط بن يعمر الإيادي، وكان أكثم بن صيفي حكيم العرب يكاتب الملوك، ولأبناء جَفنة في البلقاء كتّاب يكتبون عنهم في خاص أمورهم وعامهم، وكان المرقِّش كاتب الحرث بن شمر الغساني، وبذلك تبين أن الإياديين سبقوا إلى الكتابة، وما جاء خبر أكيد عن الغسانيين الذين جاوروا الروم في جنوب الشام وتصرفوا لهم.

ما علا شأن قريش في الكتابة إلا في الإسلام، ولا يعلم إذا كانت تراسل الملوك، إذ لم يكن لها نظام دولة ثابت، وكانوا إذا رأوا كتبًا كتبها أهل الكتاب استعظموها،

وعثروا في الإسلام على رسالة بخط عبد المطلب بن هاشم في قطعة أدَم، وذلك في إثبات حق له على رجل من العرب.

وإذ كانت الخطب والرسائل في ذاك العهد قاصرة الأغراض، وصادرة عن أناس على الفطرة، ليس لهم من المدنية مادة تدعوهم إلى الفلسفة والتوسع في الفكر، تجردت كتابتهم من كل صنعة وفن، ويقول الجاحظ: إنه لم يجد في خطب السلف الطيب، والأعراب الأقحاح ألفاظًا مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعًا رديئًا، ولا قولًا مستكرهًا، وأكثر ما وجد من ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين، ومن أهل الصنعة المتأدبين، سواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب، أو كان من نتائج التخير والتفكير.

عهد الإسلام:

والمعقول أن أسلوب الجاهليين في الكلام المنثور لا يختلف عن الأسلوب المتبع في الرسائل والخطب أول الإسلام؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خاطب قومه بالطريقة التي يفهمونها، وتقع من نفوسهم الموقع الحسن. وما قَدرَت العرب بلاغته حق قدرها إلا لأن بلاغتهم ضرب من بلاغته، والبليغ يدرك من هو أبلغ منه. وفي كتب النبي إلى عماله، وإلى رؤساء القبائل، وإلى الأمراء والملوك، ومنها ما أملاه بنفسه أو كتبه له كتابه فأقرَّهم عليه، مثال من بلاغة الأقدمين من العرب، وقد رأيناه -صلوات الله عليه- ينكر على من يسجعون الكلام، وينهى عن السجع على نحو سجع الكهان، وكانوا يسجعون للإغراب والتأثير والزينة.

كان الرسول يتوخى إذا كتب لغير العرب، أن يوجز القول، ويقلّ من اللفظ الذي لا يتفهمه كل إنسان، حتى يسهل نقل كلامه إلى ألسن من كتب إليهم من غير

العرب، كما كان إذا خاطب قبائل من غير قريش أو كاتبهم يستعمل ألفاظًا مألوفة لا يعرفها القرشيون، ذلك لأن مقصده الإفهام، والبليغ من الكلام ما فُهم وأبقى في النفس أثرًا.

أوتي الرسول جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارًا، وكلامه جزل رشيق، لا تعمّل فيه ولا غموض، وروي عنه أنه قال: «أبغضكم إليّ الثرثارون المتشدقون» يريد أهل الإكثار وأصحاب التقعير في الكلام. والتقعير: التكلم بأقصى الفم، والتشدق: تكلف البلاغة. نعم كان نزورًا يذم المكثار، ويترسل في القول، ويكره الانبعاق في الكلام؛ أي. الاندفاع فيه. وقال: نضَّر الله وجه رجل أوجز في كلامه، واقتصر على حاجته. فأصْلح الرسول العربي لغة التخاطب والتكاتب، كما جاء لإصلاح المعاد والمعاش. وكذلك يقال في بلاغة الصحابة ومن أخذوا عن الرسول، وكذلك يقال فيمن أخذ عن الصحابة من التابعين وتابعيهم والخلفاء والأمراء، يمتاز أفراد منهم بالبلاغة كما يتمايزون برجحان العقل.

وكتب الناس إلى أواخر القرن الأول على النمط الذي عرفوه عن الرسول آخذين بالطبع، بعيدين عن الإطناب، ومن ذلك أمثلة كثيرة في كتب التاريخ والسير، ومن أهمها رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء وقد كتبت على أسلوب عصرها، لا تعمّل فيها ولا سجع ولا مزاوجة، لفظها على قدر معناها.

ما عدا أسلوب الكتب، أسلوب الرسائل والخطب. بيد أن تدوين الكتب تأخر قليلًا، ومن أول ما دوّن ما كتبه صاحب الرسالة لعمرو بن حزم وغيره في الصدقات والديات والفرائض والسنن، وما كان يكتبه عمر من الحديث، وقد أمره الرسول بتقييد العلم، وأشار إليه أن يكتب خطبته في عام الفتح إلى أبي شاه، وكان واثلة بن

الأسقع يملي على الناس الأحاديث وهم يكتبونها بين يديه، وألف زيد بن ثابت كتابًا في الفرائض، وأُلف كتاب في قضاء علي في عهد ابن عباس، وأمر معاوية أن يدون ما يتحدث به إلى عَبيد بن شَرْيَة من أخبار عاد وثمود وجُرهم. وكان عبيد من القدماء في الحكمة والخطابة مثل أسقف نجران وأكيدر صاحب دومة الجندل. كل أولئك كان الأساس الأول الذي قام عليه التأليف في القرن الثاني، بالرواية وذكر السند، ولم يصل إلينا من خطب القوم ومحاوراتهم ورسائلهم إلا ما لا بال له.

أسلوب القرآن:

أما أسلوب القرآن فهو فوق كل أسلوب، وأسمى من كل كلام، لم يعهد العرب مثله في نظام القول وترتيبه، وما استطاعت، على كثرة فصحائها في دهر نزوله، أن تحتذي مثاله في أسلوبه وأداء معانيه، وقد أريدوا على ذلك وتُحدوا عليه. والقرآن حسَّن ملكة الكتابة والخطابة، كما كان كذلك تأثيره في الشعراء، فجاء الشعر الإسلامي أرق من الشعر الجاهلي.

ولقد قال بعض العارفين: إن في القرآن المرسل والمسجع والمزدوج. والمرسل ما يطلق فيه الكلام إطلاقًا ولا يقطع أجزاء، بل يرسل إرسالًا من غير تقيد بقافية ولا غيرها. والمسجع ما أتى قطعًا والتزمت في كل قافيتين منه قافية واحدة. والمزدوج أن يشبه الكلام بعضها بعضًا في السجع أو الوزن. وقالوا: إنه لا يحسن منثور الكلام، ولا يحلو حتى يكون مزدوجًا، ولا تكاد تجد لبليغ كلامًا يخلو من الازدواج.

يقول ابن خلدون: إن القرآن وإن كان من المنثور، إلا أنه خارج عن الوصفين، وليس يسمى مرسلًا مطلقا ولا مسجعًا، بل تفصيل آياته ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها، ويثني من غير

التزام حرف لا يكون سجعًا ولا قافية، ويسمى آخر الآيات فواصل، إذ ليست أسجاعًا، ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي قوافٍ.

وذهب المعتزلة إلى نفي السجع من القرآن، وقال الباقلاني: إن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن، لأن اللفظ يقع فيها تابعًا للمعنى. وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه، وبين أن يكون المعنى منتظمًا دون اللفظ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع، كان مستجلبًا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى، وقال أيضًا: ولو كان القرآن سجعًا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلًا فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال هو سجع معجز، لجاز لهم أن يقولوا شعر معجز؛ كيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر، لأن الكهانة تنافي النبوات وليس كذلك الشعر.

وسواء كان القرآن سجعًا أو ما يشه السجع، فهو من الكلام المنثور الذي لا تبلغ قرائح البلغاء مداه، ما عرف شبيه له بهذه الروعة وهذه العبقة. يقول الجاحظ: لو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان. وقال أيضًا: ولو أن رجلًا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة لتبين له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى به أبلغ العرب لأظهر عجزه عنه لغة ولفظًا.

الأسلوب الأول:

احتفظت الكتابة والخطابة في عصر الصحابة ومن بعدهم بالطريقة التي ما حذقوا غيرها، وهي تدور على توفية المعنى واللفظ حقهما، مع البعد عن الإطناب والمبالغة، والقصد إلى الإيجاز والسهولة، يرسلون الكلام إرسالًا بلفظ سمح، ومخرج سهل، إملاآتهم كأحاديثهم، ابنة السليقة وربيبة الغريزة، خالية من كل ما هو متكلف مصنّع، «بكلمات مؤلفات، إن فسرت بغيرها عُطّلت، وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة إذا سُمعت، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلبت»، وكانوا يقولون: البلاغة هي التقرب من البعيد، والتباعد من الكلفة، والدلالة بقليل على كثير، وقالوا: البلاغة إيجاز في غير عجز، وإطناب في غير خطل. وإن البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى. وقال علي بن أبي طالب: ما رأيت بليغًا قط إلا وله في القول إيجاز، وفي المعاني إطالة، وقيل لأبي عمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ قال: نعم ليسمع منها. قيل: فهل كانت توجز؟ قال: نعم ليحفظ عنها.

لا جرم أن الإيجاز من طبع العرب وطبيعة لغتهم، وتخير الألفاظ من شأن كل بليغ. والعرب كما قال ابن جني تعنى بألفاظها وتصلحها وتهذبها وتلاحظ أحكامها. قال: فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها، وأفخم قدرًا في نفوسها؛ فأول ذلك عنايتها بألفاظها، فإنها لما كانت عنوان معانيها، وطريقًا إلى إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها وبالغوا في تجبيدها وتحسينها، ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب في الدلالة على القصد. وللمتأخرين آراء كثيرة في هذا الشأن، ومنها ما قاله الجرجاني: «لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك، وقولهم يدخل الأذن

بلا إذن. فهذا مما لا يشك العاقل في أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى، وأنه لا يتصور أن يُراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة».

كانوا يكتبون الرسالة في المقصد الكبير، ويضعون الخطاب في أعظم المعضلات، في إيجاز لا فضول فيه، عار عن المقدمات والتزويق، يقيمون لكل لفظ معناه، ولكل معنى لفظه، وجودة اللفظ تبع لجودة المعنى، «وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة، وعلى طريق الخطباء مشت الكتاب»، ذلك لأن «الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية؛ وقد تتشاكلان أيضًا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتّاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، والفرق بينهما أن الخطبة يشافه بها بخلاف الرسالة، والرسالة تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة». قال ذلك العسكري، وذكر غيره أن الخطابة نوع من منثور الكلام، تأخذ من النثر تصوير الحقائق وإبلاغها النفوس من دون إتعاب ذهن، ولا تكلف في الأداء، ومن النظم سلاسته، وتأثيره في النفس.

تبدل الأسلوب:

عرضت بواعث كثيرة لأولي الأمر من العرب بكثرة الفتوح، وانتشار الإسلام، وتمازج الفاتحين بأجناس من الأمم، فاحتيج إلى التعاهد والتعاقد، والتدريب والترتيب، والمرادات والمشادات، ودعت الحال إلى أن يخطب ويكتب في ضروب من الكلام، وما خرج الكاتبون مع هذا عن معهود طريقتهم، لا يتعدون إذا أطالوا في رسائلهم الأسلوب القديم بحال؛ يتوسعون في المعاني للإقناع والتأثير، واستيفاء الموضوع من عامة أطرافه، ويبقون الألفاظ والتراكيب على النسج الذي عرفوه، لا يكثرون من اللفظ إلا بقدر ما يصورون المعاني، ويجمعون شتيت المقاصد، ولا

يستخدمون من الكلمات إلا الشائعة في الاستعمال، ولا من المعاني ما يعلو عن أذهان عامة الطبقات، ولا من السجع إلا ما وافق الطبع.

وزادت مع الزمن أعمال الملك والسلطان، وحدثتْ للناس مشاكل وعضل، وخيف ضياع العلم، فدعت الضرورة إلى تدوين أمهات المسائل في الدين واللغة والشعر والأخبار والسير، والكتابة لم تبرح على ما كانت، يتبسطون في الفكر والشرح، ويبعدون عن التزيد والتزيين، ويراعون الإيجاز ما أمكن، ويحتفظون أبدًا بالطريقة المأثورة عن أهل الصدر الأول؛ فكان التوسع في الأغراض والمطالب فقط، وما خرجوا عن الألفاظ والقوالب المشهورة. وفي كلام التابعين، ومن جاء بعد عصرهم من رواة العلم، جمل قليلة تقرأها في كتب التفسير والسنة والتاريخ والرجال، فتناديك بأن الطريقة القديمة في أداء الكلام لم يدخلها تغيير ولا تبديل.

جاء من الأمويين كُتَّاب بلغاء، وخطباء أبيناء، جروا في ترتيب دولتهم على سنة من تقدمهم في الرسائل والعهود. وفي الموجزات من رسائل عمر بن عبد العزيز مثال من البلاغة، لولا أن اختلط كلامه بما كتبه له كُتَّابه، كان يكتب بيده إلى عماله في الأمصار ويكتب كُتَّابه في المسائل العادية. كان من بلغاء الكتاب ومصاقع الخطباء، ولما بويع بالخلافة دعا إليه كاتبًا فأملى كتابًا واحدًا من فيه إلى يد الكاتب بغير نسخة، فأملى أحسن إملاءً وأبلغه وأوجزه، ثم أمر بذلك الكتاب فنسخ إلى كل بلد، وكتب إلى عامله على المدينة، وقد سأله قراطيس: «دقق القلم وأوجز الكتاب فإنه أسرع للفهم».

جرى بعض خلفاء الأمويين على نهج عمر بن عبد العزيز في الإيجاز، وبعضهم على التطويل؛ وقيل: إن الوليد أول من جود القراطيس، وجلل الخطوط، وفخم المكاتبات، وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد، فإنهما

جريا في المكاتبات على طريقة السلف، ثم جرى الأمر بعدهما على ما سنه الوليد بن عبد الملك، إلا أن صار الأمر إلى مروان بن محمد فعمدوا إلى الإطناب. ولنا أن نقول بعد هذا: إن القرن الأول كان قرن الإيجاز والفطرة، والقرن الثاني قرن التطويل والإيجاز معًا، والناس يتخرجون في البيان تخرجًا، ويجوّد من أوتي طبعًا سليمًا، ولكل زمان ما يليق به من البيان كما قالوا.

الأعاجم والعربية:

كان أخوف ما يخافه العرب على اللغة سراية اللحن إليها، وما أهمهم ما دخل من التطويل على الرسائل والخطب، وما سرى من تغيير طفيف إلى نسج الكلام، كالإكثار من السجع والازدواج. والغالب أن اللحن أخذ يشيع في الناس من عهد الرسول، فقد روي أنه سمع رجلًا لحن في كلامه فقال: «أرشدوا أخاكم فإنه ضل»، ورووا أيضًا أن أحد ولاة عمر كتب إليه كتابًا لحن فيه، فكتب إليه عمر أن قَنِّع كاتبك سوطًا. وعلة الامتناع من الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر ما «شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها».

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك كان لحانًا، وكان عبد الملك فصيحًا، وعرف بلحن ابنه، فقال له: إنك يابني لا تصلح للولاية على العرب وأنت تلحن. وجعله في بيت وجعل معه من يعلمه الإعراب. وإذا لم يكن للخليفة أو الأمير حظ من العربية، وقسط جزيل من البلاغة، فكيف يخطب في أيام الجمع والأعياد، وفي النوازل الكارثة.

سأل الحجاج -وهو من أبلغ الخطباء- يحيى بن يعمر: هل يلحن عنبسة بن سعيد؟ قال: نعم، كثيرًا. قال: فأخبرني عني، هل أَلحن؟ قال: لا، أنت أفصح الناس. قال: لتخبرني، قال: إنك تلحن لحنًا خفيفًا، تزيد حرفًا أو تنقص حرفًا، وتجعل (إن) في موضع (أن). ويقال: إن الحجاج قال له: عزمت عليك لتخبرني (عن نفسه). وكانوا يعظمون عزائم الأمراء. فقال يحيى: نعم في كتاب الله، قال: ذاك أشنع، ففي أي شيء في كتاب الله؟ قال: قرأت: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله} فترفع (أحبَّ) وهو منصوب. قال: إذًا لا تسمعني ألحن بعدها، ونفاه إلى خراسان، وما احتمل له قوله: إنه قد يلحن، وعدَّ ذلك سُبّة على مثله.

وطبيعي أن يزيد اللحن بدخول الأعاجم في الدين وتمازجهم بالعرب، وأن تضعف ملكة البلاغة في القول والكتابة، بتكاثر كُتَّاب الدولة الأموية وعمالهم من أبناء الروم والفرس والقبط والبربر، ولا سبيل إلى أن يكون الدخيل كالأصيل حذو القُذّة بالقُذة، في منازع التصوير والتفكير والتحبير.

وإذا عرفنا أن اختلاط العرب بالفرس بدأ من عهد الأكاسرة عن طريق الحيرة، حتى إن بهرام جور بن يزدجرد وضعه أبوه عند النعمان بن المنذر ملك الحيرة ليتأدب بآداب العرب، ويعرف أيامها وأخبارها، وأن الحضارة باكرت الحيرة كما باكرت جنوب الشام، وأن شعراء الجزيرة كانوا يفدون على المناذرة والغساسنة فيلقون صدورًا رحبة، ويتقبل أمراء ذينك الإقليمين أماديح شعراء العرب بقبول حسن - إذا عرفنا هذا فلا علينا أن نقول: إن صلات العرب والفرس استحكمت قبل البعثة

بزمن طويل، وكثرت في الفتح وفود الشعراء على بعض أمراء العرب من الفاتحين في فارس، واقتضى نصب كُتَّاب يكتبون لهم في أغراضهم المختلفة.

وَقَرَ في صدور الشعراء والكُتَّاب من العرب ما رأوه في أرض فارس من مدنية قديمة، فأخذوا ينقلون ما رأوا أمتهم في حاجة إليه، وأخذت الدولة العربية عن فارس «قوانين الملك والمملكة، وترتيب الخاصة والعامة، وسياسة الرعية»، وكانت «أكثر المعربات مأخوذة من الفارسية». ولما نقلت الدواوين على عهد عبد الملك بن مروان من الفارسية والرومية والقبطية إلى اللغة العربية انتقل جمهور كبير من الكُتَّاب والحُسَّاب من الأعاجم إلى حجر العرب يكثرون سوادهم.

ولما كان معظم من دانوا بالإسلام من الفرس لأول الأمر أكثر من الروم والقبط -والفرس مجوس تُقصد كالمشركين هدايتهم أولًا ويتسامح مع أهل الكتاب- كثر عديد الكتاب من الفرس بالضرورة، وزاد عدد من ينزلون بلادهم من العرب، لتولي الأحكام وإدارة الملك، وسرت إليهم بعض عادات الفرس من حيث لا يشعرون، وأمسوا يغرقون في التبجيل والتحميد، ويستعملون ذلك في الرسائل والخطب، وظلت كتابة الكتب بمعزل. وبهذا تكوَّن الأسلوب الفارسي. وكان عبد الملك بن مروان كثيرًا ما يقول: «إن رَوْح بن زنباع -وهو من المشهورين بالخطابة والعلم والسياسة- شامي الطاعة، عراقي الخط، حجازي الفقه، فارسي الكتابة».

وتجلت في القرن الثاني الطريقة الفارسية في العربية، ووضع عبد الحميد بن يحيى أساس هذا الأسلوب المطوّل، وكان يحسن الفارسية، وهو أول من أطال الرسائل، ولم يعهد تطويل مثل تطويله في أهل القرن الأول، اللهم إلا ما كان من رسالة علي بن أبي طالب إلى الأشتر النخعي، وهي في مطالب إدارية عظيمة، هذا إذا صحت نسبتها إلى أمير المؤمنين. فأسلوب القرن الثاني لم يخرج -والحالة هذه- عن

أسلوب أهل القرن الذي تقدمه بألفاظه وتراكيبه، اللهم إلا ما كان من سجع قليل، وشيء من مبالغة وتهويل، ولولا الإطالة لأشبهت كتابة أهل القرن الثاني كتابة أهل القرن الأول. دع ما كان من أفكار جديدة سرت بالترجمة والاختلاط، مما هو طبيعي في اللغات والأمم.

وتعليل هذا الغلو المستفيض في كتابة الفرس، وكتابة من تأثروا بآثارهم من كُتَّاب العرب، أن الفرس كانوا قبل حكم العرب يؤلهون ساداتهم وكبراءهم، وهؤلاء يسخرونهم كما يسخرون العبيد، وما على العبد إلا إرضاء سيده، والإدهان له. والإسلام لم ينزع كل ما تأصل في الطباع. وصار إيغال الفرس في التبجيل والتعظيم خلقًا لهم، وعادة متأصلة على الأيام، فظهر أثر ذلك في الكتابة –والكتابة مرآة صاحبها– على ما لم يعهد مثله للعرب فيما سبق من الآدباء. بدا ذلك قليلًا في بعض كُتَّاب القرن الثاني وشعرائه، وعمَّ وطمَّ في القرن الرابع.

ومن قارن بين ما كان يصدر من الرسائل عن الصحابة وخلفاء بني أمية وأوائل بني العباس، وما كان يصدر في مثل موضوعها عن كُتَّاب العباسيين في القرن الرابع يقع على فروق، يسوغ لك أن تقول معها: إن الكتابة انقلبت رأسًا على عقب، وإن بعض ما دبجه الكاتبون هذا القرن في السلطانيات خاصة والإخوانيات عامة، ليس إلا أسلوبًا فارسيًّا مهذبًا: ألفاظ كثيرة، وجناسات واستعارات، تشفُّ في الواقع عن حضارة، وما هي إلا نثر فيه الصنعة وفيه التصنع. والمدنية على جمالها لا تخلو في كل عصر من تعقيد، وقد سبقت الكتابة في هذا الباب فتبدل المطبوع بالمصنوع أو كاد.

جرى بعض الخلفاء الأول من بني العباس في الشرق وبني أمية في الغرب خلال القرن الثاني على طريقة أهل القرن الأول، يطيلون تارة ويوجزون أخرى،

وكذلك ساروا في الرسائل والخطب؛ ويزيد التمسك بالقديم إذا كان الخليفة كاتبًا بليغًا مصقعًا في ذاته، كالمنصور والرشيد والمأمون، وكانوا يعرفون للبلاغة قدرها، ويحملون كتابهم على الإيجاز، مراعاة لروح اللغة، واقتداء بسيرة أئمتها، وحرصًا على أن لا يصدر عن دواوينهم ما تنبو عنه الأذواق، ويغني قليله عن كثيره.

الأسلوب المنتشر:

رأى الناس بعد القرن الثاني أن من المصلحة الإسهاب في المكاتبات فأسهبوا، وبدأ إسهابهم ضئيلًا ثم عمَّ بعد. وقد أبان ابن قتيبة سبب الإسهاب والاقتضاب بقوله: وليس يجوز لمن قام مقامًا في تحضيض على حرب، أو حمالة بدم، أو صلح بين العشائر، أن يقلل الكلام ويختصره، ولا لمن كتب إلى عامة كتابًا في فتح أو استصلاح أن يوجز، ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه تلكؤه في بيعته: «أما بعد، فإني أراك تقدم رجلًا وتؤخر أخرى، فاعتمد على أيهما شئت والسلام»، لم يعمل هذا الكلام في أنفسها عمله في نفس مروان، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر، ويعيد ويبدي، ويحذر وينذر.

ومثل هذا رأي صاحب الصناعتين قال: «إن المعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر والنهي سبيلها أن تؤكد غاية التأكيد، بجهة كيفية نظم الكلام لا بجهة كثرة اللفظ؛ ومثل ذلك ما يكتب من السلطان في أمر الأموال وجبايتها واستخراجها، ومنها الإحماد والإذمام، والثناء والتقريظ، والذم والاستصغار، والعذل والتوبيخ، فإن سبيل ذلك أن تشبع الكلام فيه، وكذلك فيما يكتبه العمال إلى الأمراء فمن فوقهم، وكذلك في الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة، والفتوح

الجليلة، وتفخيم النعم الحادثة، والترغيب في الطاعة، والنهي عن المعصية، سبيلها أن تكون مشبعة فتملأ الصدور، وتأخذ بمجامع القلوب».

وجملة الأمر: أن الكُتَّاب في القرن الثاني والثالث جروا على سنة القدماء في الرشاقة والجزالة، وخالفوهم في الأسلوب والوضع، على ما لا يعبث بمذاهب الكلام؛ فكان فيهم من يطيل ويسهب، وفيهم من يوجز ويقتضب، وفيهم من يبالغ في المعنى ويغلو، وفيهم من يقتصد في اللفظ ولا يسرف؛ فأسلوب ابن المقفع، وسهل بن هارون، وعمرو بن مسعدة، والجاحظ، إيجاز وتطويل بحسب الحال، والجاحظ إلى البسط أقرب في الأحايين، لأنه يقرر أنظارًا، ويضع تعاليم، ويفسر علمًا وأدبًا، ويشرح معارف وحقائق، ويحاج ويجادل، فليس له غنى عن التوسع في فنون الكلام، وإذا أفاض فكلامه كلام أهل القرن الثاني والثالث؛ أما بلاغته فبلاغة أهل القرن الأول، لا سجع في كلامه إلا ما جاء عفوًا، ولا تحس الصنعة فيه إلا إذا كان في تجديد المعاني والتراكيب، واستعمال الجزل من الألفاظ.

ونحن على حق إذا ادعينا، بعد الذي قدمنا، أن ملكة التطويل استحكمت أواخر القرن الثاني، بتكاثر عدد من نشأ من الفرس كتابًا وخطباء ومؤلفين، أدمجوا فيما أنشئوا إسرافهم في التعظيم والتطويل، واشتد تمازج من كانوا من أصل عربي من الكُتَّاب والمؤلفين والرواة بأهل فارس، حتى كادت دولة العباسيين تعد دولة فارسية لولا مكان الخليفة من العرب. وظهر الغلو في القول والإسراف في اللفظ، وتلوين المعاني وإبرازها في صور كثيرة، وتفنن بعض الكاتبين في إرسال الكلام، وأوغلوا في الصنعة والتثقيف، حتى أوشك البيان أن يصاب بما يخرجه عن رونقه القديم؛ فنصح جعفر بن يحيى، وهو أمير من أمراء البيان للكتاب قائلًا: إن استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا.

قال هذا في العهد الذي أخذ فيه الأعاجم يسطون على الأسلوب العربي على هذا الوجه، وفي تلك الحقبة كان العارفون يحاذرون ضياع الأسلوب القديم جملة، حتى إن المأمون رفع إلى مقام الوزارة كلًّا من عمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف الكاتب لما أُعجب به من توخيهما الإيجاز في الرسائل على طريقة القدماء، وقال يومًا: ما أعجب لكلام أحد كإعجابي بكتاب القاسم بن عيسى (أبي دُلَف) فإنه يوجز في غير عجز، ويصيب مفاصل الكلام، ولا تدعوه المقدرة إلى الإطناب، ولا تميل به الغزارة إلى الإسهاب، يجلي عن مراده في كتبه، ويصيب المغزى في ألفاظه.

نعم رفع الملوك من بني العباس بلغاء كتابهم إلى الوزارات، وقلما رفعوا شاعرًا لشعره، لأن الشعر خيال وحس، والكتابة عقل وحقيقة، وحاجة الممالك في تدبيرها إلى العقول أكثر من احتياجها إلى العواطف، والعلوم على اختلاف ضروبها تكتب نثرًا. ولما نظم المتأخرون متون العلم كالفرائض والقراءات والفقه والنحو وغيرها شعرًا أفسدوا الشعر، وما أفادوا العلوم والمتعلمين كبير أمر؛ وكان هذا العبث كالعبث بصنع الكلام يوم استخرجوا من نثر ابن المعتز ذاك الفن الذي سموه البديع، فأفسد نظام الكلام، وأخرج البيان عن أصوله وطرائقه إلى صنعة يقصد بها المجانسات في الألفاظ، والاستعارات والتشبيهات في المعاني.

والكُتَّاب كما يقول ابن قتيبة هم ألسنة الملوك، إنما يتراسلون في جباية خراج، أو سد ثغر، أو عمارة بلاد، وإصلاح فساد، أو تحريض على جهاد، أو احتجاج على فئة، أو دعاء إلى أُلفة، أو نهي عن فرقة، أو تهنئة بعطية، أو تعزية برزية، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب، ومعاظم الشئون التي يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوي آداب كثيرة ومعارف مفننة.

قال: والشعراء إنما أغراضهم التي يرمون نحوها، وغاياتهم التي يجرون إليها، وصف الديار والآثار، وذكر الأوطان، والحنين إلى الأهواء، والتشبيب بالنساء، ثم الطلب والاجتداء، والمديح والهجاء. ولذلك قال ابن خلدون: إن صاحب خطة الرسائل والكتابة لا بد أن يُتخير من أرفع طبقات الناس، وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم وعارضة البلاغة. وقال ابن سنان: منزلة الشاعر إذا زادت وتسامت لم ينل بها قدرًا عاليًا ولا ذكرًا جميلًا؛ والكاتب ينال بالكتابة الوزارة فما دونها من رتب الرياسة. قال: «وصناعة تبلغ بها إلى الدرجة الرفيعة أشرف من صناعة لا توصل صاحبها إلى ذلك؛ وإن أكثر النظم إذا كشف لا يعبر عن جد، ولا يترجم عن حق، وإنما الحذق فيه الإفراط في الكذب، والغلو في المبالغة، وأكثر النثر شرح أمور متيقنة وأحوال مشاهدة، وما كثر فيه الجد والتحقيق أفضل مما كثر فيه المحال والتغرير».

هذا غاية ما يقال في كُتَّاب الرسائل أو كُتَّاب الدواوين. أما شرف الكتابة والحاجة الحافزة إلى إتقانها في التأليف، فهو غني عن البيان بعد أن شاهدنا طبقات من المؤلفين كان من أعظم الدواعي لخلود تآليفهم إجادتهم الكتابة؛ ولا نذكر منهم إلا من وصلنا شيء مما كتبوه، كأبي يوسف صاحب أبي حنيفة، ومسلم صاحب الصحيح، وصالح بن جناح صاحب كتاب الأدب والمروءة، وابن حبان البستي وابن المدبر وابن جني وابن سلام وابن قتيبة والثعالبي والطبري والمسعودي والمقدسي والدينوري والبلاذري والمبرد وابن الداية وأبي بكر الصولي والقاضي التنوخي وابن عبد ربه والمرزباني وأبي هلال العسكري وقدامة والباقلاني وأبي الحسن الأشعري وعلي بن هندو ويحيى بن عدي وعبد القاهر الجرجاني وعلي بن عبد العزيز ومسكويه وابن حزم وأبي الفرج الأصبهاني وابن زيدون والبكري وابن طفيل والغزالي والراغب الأصفهاني والماوردي والقالي وأضرابهم.

وما سلم من كتبهم شاهد أبد الدهر على تفوقهم في البيان، وكان نبوغهم فيما عانوا من الفنون، مضافًا إلى براعتهم في الإنشاء، أعظم نعمة على الآداب العربية؛ وهؤلاء وضرباؤهم هم الذين رسخت بهم ملكة البيان العربي على مرور الأزمان، وفضلهم على الكتابة يوازي فضلهم في علوم أرادوا بثها، وقد يربو على فضل الشعراء على الأدب.

قال الجاحظ عن نفسه: إنه طلب علم الشعر عند الأصمعي فوجده لا يحسن إلا غريبه، فرجع إلى الأخفش فوجده لا يتقن إلا إعرابه، فعطف على أبي عبيدة فوجده لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، وقال: إنه لم يظفر بما أراد إلا عند أدباء الكُتَّاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات. والكُتَّاب يقدرون الشعر قدره أكثر مما يقدر الشعراء قدر الكتابة؛ واصطلح الكتاب كما قال ابن رشيق على ألفاظ بأعيانها سموها الكتابه فما تجاوزوها إلى ما سواها، وعرفوا معاني للبلاغة في النثر لم يتوفر للنظم مثلها؛ ولذلك كانت الإجادة في النثر أصعب من الإجادة في الشعر.

الأسلوب المتكلف:

هذا وإن في منثور الكُتَّاب من القرن الثاني إلى الخامس بل السادس إحسانًا دونه كل إحسان، والقليل الذي قرأناه لعمارة بن حمزة وإسماعيل بن صبيح وجعفر بن يحيى ويحيى بن جعفر وخالد بن جعفر وعلي بن عيسى وابن الفرات هو غرة في وجوه الكلام على غابر الأيام.

وكان لعلي بن عيسى «مذهب في الترسل، لا يلحقه فيه أحد ولا ابن الفرات»، وابن الفرات هو الذي وضع الألقاب في مخاطبة الملوك والأمراء والوزراء والعمال، وكانوا قبله يكتفون بالاسم والتكنية، ولا تلحظ في الكتابة من الصغير إلى الكبير

وبالعكس تعظيمًا ولا تصغيرًا، شأن العرب في مخاطبة بعضهم بعضًا، يتخاطبون بأسمائهم وكناهم، ويقتصرون في المكاتبات على اللباب دون القشور. ولم يطل عمر هذه المصطلحات في التلقيب؛ فالمواضعة والاصطلاح في الخطاب يتغير -كما قال ابن سنان- بحسب تغير الأزمنة والدول. قال: إن العادة القديمة قد هجرت ورفضت، واستجد الناس عادة بعد عادة، حتى إن الذي كان يستعمل في عصره في الكتب غير ما كان يستعمل في أيام أبي إسحق الصابي مع قرب زمانه من زمان ابن سنان.

هذا في بلاد الشرق. أما في الأندلس فقد ظلت دولتهم عربية في كل مظاهرها، لا تعرف التلقيب الذي أحدثه من جاوروا الفرس وأخذوا مدنيتهم وأدخلوا رجالهم في جملتهم. قالوا: وكان ابن قصيرة من كتاب الأندلس «على طريقة قدماء الكُتَّاب من إتيان جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أخذها متأخرو الكتاب، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفوًا من غير استدعاء».

وكذلك يقال في ابن بسام، فإنه أحسن تصوير من ترجم لهم من شعراء الجزيرة، كما أحسن في القرن الثامن لسان الدين بن الخطيب في تصوير رجال غرناطة. وظل كُتَّاب الأندلس على اقتفاء خُطا العرب في الكتابة حتى راجت في المشرق أساليب جديدة فحاكوها؛ وظلوا مع هذا أكثر ميلًا إلى الفطرة واقتصارًا على المعاني. وزعم ابن خلدون أن المتأخرين استعملوا أساليب الشعر وموازينه في المنثور، وأنهم هجروا المرسل وتناسوه خصوصًا أهل المشرق، قال: وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال، من أحوال المخاطَب والمخاطِب؛ هذا ما قاله. والأندلسيون من المتأخرين لم يكونوا في السجع والتطويل

دون المشارقة على ما تقرأ ذلك في نفح الطيب وقلائد العقيان ومطمح الأنفس وغيرها، حاشا المؤلفين منهم فقد داموا إلى آخر أيام الأندلس يكتبون بلا تعمّل في الجملة، وحييت الكتابة في دولة بني الأحمر آخر ملوك العرب في تلك الديار، والشعر الذي وصلنا منهم أكثر من النثر.

هجم السجع هجومًا مروعًا على الكلام المرسل فأضعف من قواه، ونال من قوامه بعد القرن الرابع؛ وكان أول من غالى في التزام الكتابة المسجوعة أبو إسحاق الصابي، وأبو بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني، والصاحب والعتبي، واقتفى أثرهم كُتَّاب الأندلس ومصر؛ وعدم التكلف غالب على البديع، فقد يتخلى عن السجع في رسائله، كما يترك الصابي ذلك في بعض عهوده. وقالوا: إن الصابي كان يكتب ما يراد، والصاحب يكتب ما يريد. وكان ابن العميد يعد في جملتهم، لولا أنه التزم طريقة المرسل وطريقة المسجوع معًا، ووضع طريقة الشعر المنثور. وقالوا: إنه أقل معاصريه احتفالًا بالسجع، مع أن الذي قرأناه له ينافي هذا القول، وكأنه أشبه بحلقة اتصال بين دور الكلام المطبوع، ودور الكلام المصنوع.

قالوا: بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد؛ وهو قول يحتاج إلى نظر، والعالم على ما يقول الباقلاني لا يخفى عليه الفضل بين رسائل عبد الحميد وطبقته وبين طبقة من بعده، حتى إنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد وبين رسائل أهل عصره ومن بعده، ممن برع في صنعة الرسائل وتقدم في شأوها، حتى جمع فيها بين طريقة المتقدمين وطريقة المتأخرين، فخلص لنفسه طريقة، وأنشأ لنفسه منهاجًا؛ فسلك تارة طريقة الجاحظ، وتارة طريقة السجع.

وضع الهمذاني طريقة المقامات، وقيل: إنه اقتبسها من ابن دريد، وعلى منواله نسج الحريري في القرن التالي على أسلوب مبتكر، لا يصلح للرسائل ولا للكتب،

وما هو إلا ضرب جديد من النثر، تقرأ في تضاعيفه الكلفة الظاهرة، وقد قلدها فيه الزمخشري والوطواط، ومن المتأخرين ابن الوردي والسيوطي، والسيوطي ولع كمعاصره ابن عبد الهادي أن يكتب في كل موضوع؛ ومعظم أبناء هذه العصور عصور السجع هم أهل تكلف وتصنع، وأبو العلاء المعري يندمج فيهم وإن تقدمهم في الميلاد؛ فهو حكيم لغوي غلب الغريب والسجع على ما كتب في رسائله، و«رسالة الغفران» لو خلت من السجع لكانت في موضوعها آية، وابن القارح في رسالته التي رد عليها أبو العلاء أكتب وأبلغ، وفي منثور المعري نشوفة ويبوسة لا تخفى على من تذوق البلاغة.

ذكر الثعالبي، وهو من أئمة الكتابة الذين جَوّدوا في المرسل والسجع، أن من النثر المسجع ومنها المرسل، قال: والمحمود في هذا الزمان -أي: في القرن الخامس- المرسل، إذا اشتمل على شيء من السجع يجيء عفوًا. وقال صاحب نقد النثر: «إن من أوصاف البلاغة السجع في موضعه، وعند سماحة القريحة به، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه؛ فإن السجع في الكلام كمثل القافية في الشعر، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها، والسجع مستغنًى عنه، فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله، وخطبه ومناقلاته، فذلك جهل من فاعله وعِي من قائله، وقد رويت الكراهية فيه عن رسول الله، ولو كان لزوم السجع في القول والإغراب فيه وفي اللفظ هي البلاغة، لكان الله عز وجل أولى باستعماله في كلامه الذي هو أفضل الكلام، ولكان النبي والأئمة المهديون قد استعملوهما ولزموا سبيلهما، وسلكوا طريقهما، فأما ولسنا واجدين فيما بين أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا في المواضع اليسيرة، فهم أولى بأن يقتدى بهم ويحتذى بمنهاجهم».

وبأدنى نظر يلمح الناقد البصير ان علماء البيان، وإن كانوا يجنحون إلى تفضيل المرسل، جمجموا في حكمهم على السجع ولم يبينوا، لأن السجع في عصورهم أصبح زيًّا من أزياء البلاغة وله أنصار غُيُر عليه: فما جوزوا لأنفسهم أن يثلموه، وراعوا العرف اضطرارًا فحادوا بذلك عن الجادة. يقول العسكري: واعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك فيها السجع، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد، وكثير ما يقع ذلك في السجع، وقلما يسلم إذا طال من استكراه وتنافر. وقال ابن سنان: وبعض الناس يذهب إلى كراهة السجع والازدواج في الكلام، وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيرًا، وحجة من يكرهه أنه ربما وقع بتكلف وتعمل واستكراه، فأذهب طلاوة الكلام، وأزال ماءه؛ ووجه من يختاره أنه مناسبة بين الألفاظ يحسنها، ويظهر آثار الصنعة فيها. وأما الفواصل التي في القرآن، فإنهم سموها فواصل ولم يسموها أسجاعًا؛ وفرقوا فقالوا: إن السجع هو الذي يقصد في نفسه، ثم يحمل المعنى عليه، والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في أنفسها. اهـ. وصرح الرماني برأيه فقال: إن الفواصل بلاغة، والسجع عيب.

واعترف ابن الأثير في المثل السائر، وهو السجاع المنقطع النظير، بأنه لا يجود في فن السجع إلا الأفراد القلائل، فقال: واعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع؛ ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع، لكان كل أديب من الأدباء سجاعًا، وما من أحد منهم، ولو شدا شيئًا يسيرًا من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظًا مسجوعة ويأتي بها في كلامه؛ بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة، لا غثة ولا باردة، وأعني بقولي: غثة باردة أن صاحبها يصرف

obeikandi.com

نظره إلى السجع نفسه، من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة، وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها، وما يشترط له من الحسن، وهو في الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابًا من الكرسف، أو ينظم عقدًا من الخزف الملون؛ وهذا مقام تزلُّ عنه الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب الفن بعد الواحد؛ ومن أجل ذلك كان أربابه قليلًا، فإذا صُفي الكلام المسجوع من الغثاثة والبرودة فإن وراء ذلك مطلوبًا آخر، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعًا للمعنى، إلا أن يكون المعنى فيه تابعًا للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموّه على باطن مشوّه، ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب. اهـ.

ويقول عبد القاهر: وهو أبلغ من كتب في البيان بعد الجاحظ؛ العلماء يذمون من يحمله السجع والتجنيس على أن يضم لهما المعنى، ويدخل الخلل عليه من أجلهما، وعلى أن يتعسف في الاستعارة بسببهما، ويركب الوعورة، ويسلك المسالك المجهولة. ولا بأس بأن يزاد على قوله: إن أكثر من سجعوا أطالوا وأضاعوا المعاني، ولو تهيأ لكل ما كتبوا من يُجرى عليه قلم الحذف والإثبات لذهب نصف ما سطروه، ولكان الباقي سليمًا من التزيد، لا فضول في تضاعيفه، ولا حشو في حواشيه، أخذ من البلاغة والفصاحة حظًّا عظيمًا.

والبلاغة -كما قال ابن حيدر- ليست ألفاظًا ولا معاني، بل هي ألفاظ يُعَبَّر بها عن معان، ولكن ليس كما اتفق ولا كيفما وقع، لأن ذلك لو جرى هذا المجرى لكان أكثر الناس بليغًا، إذ كان أكثرهم يؤدي عن المعاني التي يولدها بألفاظ تدل عليها، لكنهم يخرجون من طريق البلاغة، ومنهاج الكتابة من وجهين: أحدهما: أن تكون الألفاظ مستكرهة مستوخمة، غير مرصوفة ولا منتظمة. والثاني: أن تكون كثيرة يُغني عنها بعضها، ويمكن أن يعبر عن المعنى الدال عليها بأقل منها.

وبعد أن أوصى بالإيجاز قال: وهذا مذهب العرب وعادتهم في العبارة فإنهم يشيرون إلى المعاني بأوحى إشارة، ويستحبون أن تكون الألفاظ أقل من المعاني في المقدار والكثرة، وذكر ابن أبي الإصبع أن المتقدمين كانوا لا يحفلون بالسجع جملة، ولا يقصدونه بتة إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام، واتفق على غير قصد ولا اكتساب، وإن كانت كلماتهم متوازنة، وألفاظهم متناسبة، ومعانيهم ناصعة، وعباراتهم رائقة، وفصولهم متقابلة؛ وتلك طريقة الإمام علي ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام، كابن المقفع، وسهل بن هارون، وأبي عثمان الجاحظ، وغير هؤلاء من الفصحاء والبلغاء.

قلنا: إن كتابة المسجعين لو خلت من هذا التكلف السمج لنالت قسطًا من البلاغة، وفي يقيننا أن ابن بُطلان وابن جبير وعبد اللطيف البغدادي أرقى كعبًا في البلاغة، بما وصفوه من البلدان والسكان، من القاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن الصيرفي، فإن الثلاثة الأولين أدوا المعاني الجليلة في الألفاظ القليلة، والآخرين على تمكنهم من نواصي اللغة تكلفوا الأسجاع فأضاعوا من مكانتهم. وكان ابن القفطي وابن أبي أُصيبعة وابن خلكان وابن العديم وابن الطقطقي والنويري إذا تخلوا عن السجع أجادوا كل الإجادة. وكذلك يقال في كتَّاب أهل القرن الثامن والتاسع أمثال ابن فضل الله العمري والصلاح الصفدي وابن منظور والمقريزي؛ ومن أعظمهم ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب، وما خطته أناملهما شاهد على وجه الدهر بأنهما غريبة عصرهما؛ وكتابة ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية من السهل الممتنع، والتلميذ أجزل من أستاذه بيانًا.

وقع هذا الضعف في اللغة باستيلاء الأعاجم على بلاد العرب وغيرها؛ وكانت دواوين الرسائل في العواصم من قبل، مدارس لتخريج الكُتَّاب في البلاغة، حتى في

العهد الذي اشتدت فيه حاجة العرب إلى تعرف لغات الأمم المجاورة لها في الغرب والشرق، و«تنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية وتفاهموا في غير اللغة العربية» كما قال صاحب اللسان، وكان فن الكتابة بمصر في زمن الدولة الفاطمية مثلًا غضًا طريًا؛ وديوان المكاتبات لا يخلو «من رأس يرأس مكانًا وبيانًا، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانًا»، وجاء فيهم مثل ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء على عهد الحافظ العبيدي، وكانت له «قوة على الترسل يكتب كما يشاء». يقول ابن خلدون: إن رافع راية البلاغة في الأندلس ابن حيان المؤرخ وابن عبد ربه والقسطلي. ولا شك أنه تقدمهم وتأخر عنهم كثير من العظماء في البلاغة، ومنهم ابن بسام والبلوطي والحصري والشاطبي وابن سيده وابن حناط الكفيف وابن خاتمة وعشرات أمثالهم من المؤلفين الكاتبين. ولم يكن البيان في الأندلس مقصورًا على الرجال بل شارك فيه النساء نظمًا ونثرًا، كما وقع لمعظم بلاد الإسلام أيام عزها، فأبدعن وأدهشن، وكن من المبرزات في رواية السنة منذ قام الرسول يهدي إلى دينه.

وعَفَّى القلقشندي وابن عربشاه والخفاجي وأضرابهم على محاسنهم، بما أخذوا أنفسهم به في القرن التاسع والعاشر من مذاهب السجع والجناس والتشبيه. وتناسى الكُتَّاب الكلام المرسل منذ القرن العاشر إلى أواسط القرن الثالث عشر، فقلَّ المجودون من المترسلين والمؤلفين، وندر الإبداع، وتراجع العلم والأدب، وما فتئ أرباب الأقلام يسترون نقص كلامهم بأسجاعهم وتطويلاتهم، ولا نذكر لمؤلف إبداعًا في هذه العصور، وأكثرهم أدنى إلى أن يُعَدُّوا نقلة ومحتذين منهم إلى أن يحسبوا كاتبين ومؤلفين، ودثر كثير مما كتبوا لاستغناء الناس عنه، ولأنه غير صالح للبقاء، وما بقي مما روعي فيه الطبع من التآليف والرسائل، فهو أندر من الكبريت الأحمر، ونيما طبع من كتب المتأخرين من اليمانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة من ذاك العهد مثال ترتجف أعصاب البلغاء من سماعه فضلًا عن تناقله.

نعم إن في بيان المتأخرين في عصور التدلي شناعة وهجانة، جاء ضعيف المادة، قلق الأسلوب، مبتذل اللفظ، مغموسًا في التقليد، محوكًا بالتعقيد؛ ولا نذكر كاتبًا مسترسلًا نشأ في القرون الأربعة المنحطة يصح عدّه في فحول الكتاب، لأنهم كلهم أهل سجع وبديع، وكلهم ألفوا اقتباس طريقة من سبقهم، فتغذى أدبهم من مادة ضعيفة، تسلسل فيها الوهن والجمود بكرور الأيام. وربما جاء في غضون تلك الأحقاب من لا بأس بأدبه، وكان يمكن أن يُتجوز في ضمه إلى سلك البلغاء، لو وقع إلى ديوان ملك يفهم منه ما يكتب له في هذا اللسان، ذلك لأن دولة العرب زالت بخروج الأندلس عن حكم المسلمين، وبقي قليل من الذَّماء في البيان في دولة الغرب الأقصى مشوبًا بعجمة بربرية، وبسقوط سائر بلاد العرب في حكم الأتراك العثمانيين، واستقلال فارس دولة فارسية، زاد الحال إعضالًا؛ فاعتمدت هاتان الدولتان على لسانيهما وأغفلتا العربية، خلافًا للمماليك في مصر، فإنهم رفعوا من أقدار المؤلفين والكاتبين في عهدهم، إلى ما يستغرب من أعاجم مثلهم، والفضل لمصر في ذلك، فإنها أدخلتهم في بوتقتها العربية فعرّبتهم. أما دولة الترك فإنها قضت -قصدًا أو عن غير قصد- على كل ما هو عربي في بلادها، وتآليف أشهر علمائها في العربية تشهد لهم بالعجمة في كل سطر دوّنوه.

إحياء الأسلوب القديم:

وما زالت الحال في هبوط حتى قام في مصر الإمام محمد عبده، وفي الشام اللغوي أحمد فارس في أواخر القرن الماضي، وردًّا اللغة إلى سهولتها الأولى بها كتابه وألفاه، فدبت الحياة في الكتابة في مصر والشام، يتعمد الكاتبون الأساليب الحديثة ممزوجة بديباجة القدماء، وساعد على ذلك انتشار اللغات الأجنبية بين بعض المثقفين من أبناء الضاد، وكثر المترجمون فاطلع من كانوا يعانون الأدب على طرق الأمم في تأدية المعاني، بل كان بعض المبرزين في الإنشاء هم ممن حذقوا لغة غربية مع

العربية. كل ذلك كان من العوامل في خروج الكتابة والتأليف عن أسلوب العهد المغولي، ومحاولة جميلة لإعادة اللغة إلى عصرها الذهبي. والفضل العظيم أيضًا لانتشار الصحف والمجلات بين الخاصة والعامة، ولانتظام المدارس بالنظام الغربي، حتى اضطرت المعاهد الدينية المحافظة كالأزهر والزيتونة أن تسير على الأسلوب الذي جرت عليه المدارس العصرية في التدريس والكتابة والتأليف، وشاع في كل بلد الأسلوب الرشيق الخالي من تلك الحلية البالية التي طالما غالى الكتاب في المباهاة بها، ونعني بها السجع المتكلف، واللعب بالألفاظ، وإهمال المعاني.

ويقلُّ اليوم في مجالس المتأدبين استعمال البديع والتسجيع ولو على سبيل التسلية. وما زال الإنشاء يقترب من الأسلوب البليغ، ويتفوق المجددون اليوم بعد اليوم في المخطوب والمكتوب، ويختفي السجع في ظلمات الليالي، ولا تكاد تجد له من يجوّزه في الخطب الدينية، ولا تمضي خمسون سنة أخرى حتى تعود الكتابة والخطابة إلى الرونق القديم على عهد بلغاء الكُتّاب.

وآخر من عرفناهم ممن يعطفون على السجع أحيانًا، وإن كان لهم في الكلام المرسل إحسان وإبداع، صديقنا أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، فإنه محافظ على الطريقة القديمة في مقدمات الكتب وعناوينها، يترسم خُطا ابن خلدون في مقدمة مقدمته واسم تاريخه الخالد. ومع أن ابن خلدون سيد من ترسل في المتأخرين وهو من أنصار التجدد، مال مع المحافظين في هذه الناحية على ما لم يعهد شبيه له في مؤلفي قرون المجد العربي، أهل القدوة والمثال الذي لا يحتذى غيره.